

البُعد الروحي في الإنسان.. موقعه والموقف منه



انسجاماً مع الاتجاه الواقعي الذي يلتزمه الإسلام الحنيف في تعامله مع الأشياء والحقائق والأحداث، فقد تبذّر الإسلام نهجاً متميزاً في تلبية المطالب الروحية لدى الإنسان، يحرص هذا المنهج على تلبية مطالب الأشواق الروحية لدى الإنسان من خلال أفضل السُّبُل وأقومها، مع المحافظة على خطّة التوازن بينها وبين المطالب المادّية في كيان الإنسان، وقد كان المنهاج التربوي الذي سلكه الإسلام الحنيف وفق هذين المحورين فريداً متميزاً يجعل الإنسان المسلم دائم التسبيح، دائم الاتصال ودائم الذِّكْر ﷻ ربّ العالمين، فصحيح أنّ الصلوات والصيام والدُّعاء وقراءة القرآن الكريم والاستغفار والأوراد وما إليها ينابيع روحية، تمدّ جسور الصلة بالواحد الأحد، فتسبح فيها الأشواق الروحية، تمدّ جسور الصلة بالواحد الأحد، فتسبح فيها الأشواق الروحية مسبّحة ذاكرة، فينقلب الإنسان ربيعاً رويلاً راضياً، إلّا أنّها ليست نهاية المطاف.

فالإسلام الحنيف يعطي العبادة مفهوماً شاملاً عميقاً إذ كلّ عمل يعمل به الإنسان تلبية وطاعة ﷻ عزّ وجلّ فهو عبادة، وكلّ أمر ينأى ابن آدم عنه تقرّباً وطلباً للثواب فهو عبادة، وكلّ سبيل يسلكه المؤمن وقد ندب الباري عزّ وجلّ إليه، فهو عبادة.

وهكذا يكون المسلم الذي هذا نهجه وكأنه في خشوع دائم وتطلّع دائم إلى الله عز وجل تجسيدا لقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام/ 162).

إنه في عبادة وهو في محرابه، كما هو في عبادة وهو في مكتبه، وهو في عبادة عندما يكون في متجره وعبادته أو قاعدة درسه أو ساحة جهاده، إنه الاتصال الدائم بالله جلّ وعلا، واستشعار وجوده، وعظمته في كل آن.

على أن الإسلام الحنيف قد وضع محطات دائمة أخرى على طريق المسيرة الإنسانية هي غير الصلاة والصيام وما إليها، فهناك:

- استشعار وجود الله تعالى فيما حول الإنسان من حقائق وأشياء ومخلوقات تملأ ساحة النفس والآفاق، في السماء والأرض والحيوان والنبات والجماد، وكلّ دقيق وجليل فضلا عن الإنسان هذا المخلوق العجيب.
- المراقبة الدائمة الواعية لله تعالى، واستشعار مخافته والشعور بهيمنته في كلّ حقل وفكرة ونشاط.
- التوكل على الله تعالى في الأمور كلها.
- اللجوء إلى الله والتسليم له جلّ شأنه وعلا.
- التقوى والعمل الصالح كما شاء الله رب العالمين.

إن القرآن الكريم مليء بالآيات الموقظة الموحية التي تعمق تلك المبادئ الهادية. ففي حقل الشعور بعظمة الله عز وجل من خلال مخلوقاته نقرأ هذا النموذج: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِرِئَاسِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ

حَلِيبَةً تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَاكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي
اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَكُمْ اللَّهُ
رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ
(فاطر / 11-13).

وفي حقل مراقبة □ تعالى الدائمة للعباد يقول عز وجل: □ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ
وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ
أَيَّنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْذِبَُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ □ (المجادلة / 7).

□ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ
الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ □
(الرعد / 9-10).

ويسلط القرآن الضوء على قيمة الخشوع والتقوى □ تعالى وآثارها العظيمة في مسيرة المؤمنين، فيقول
تبارك وتعالى: □ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلْأومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى
صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ
هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ □ (المؤمنون / 1-11).

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمة التي تحتسُّ على التوكل والصبر والتسليم □ ربّ
العالمين.

وحول المحاور التي أشرنا إليها يتحدث أمير المؤمنين (ع) حديث العبرة والتدبير والتعليم.

فحول حقيقة التقوى وأبعادها يقول عليّ (ع): «فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مِّن سَمْعٍ فَخَشَعَ واقتَرَفَ فاعترفَ ووَجَلَ فَعَمِلَ وَحَذَرَ فَبَادَرَ وَأَيَّقَنَ فَأَحْسَنَ وَعُذِّرَ فاعْتَبَرَ وَحُذِّرَ فَحَذَرَ وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ وَأَجَابَ فَأَنَابَ وَرَاجَعَ فَتَنَابَ واقتدى فاحتذى وَأُريَ فَرَأَى فَأَسْرَعَ طَالِباً وَنَجَا هَارِباً فَأَفَادَ ذَخِيرَةً وَأَطَابَ سَرِيرَةً وَعَمَّرَ مَعَاداً وَاسْتَظْهَرَ زَاداً لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَوَجَّهَ سَبِيلَهُ وَحَالَ حَاجَتَهُ وَمَوْطِنَ فَاقَتَتِهِ وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جَهَةً مَا خَلَقَكُمْ لَهُ واحذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ واستَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّزَجُّجِ لَصِدْقِ مِعَادِهِ والحَذَرَ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ» [1].

وحول محاسبة النفس وإشعارها بحقيقة وجودها وهدفها يقول الإمام (ع): «عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَنْفَسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخِنَاقِ وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السَّيِّاقِ واعْلَمُوا أَنَّه مَن لَمْ يُعَنَّ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظُ وَزَاجِرُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرُ وَلَا وَاعِظُ» [2].

وفي أهميّة أركان الإسلام وذكر الله عزّ وجلّ يتحدّث الإمام عليّ (ع) فيقول: «إنَّ أَفْضَلَ مَا تَوْسَّلُ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذُرْوَةُ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ. وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمَلَّةُ. وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ. وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جَنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ. وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحِضَانِ الذَّنْبَ. وَصَلَةُ الرَّحِمِ، فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ. وَصَدَقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تَكْفِّرُ الْخَطِيئَةَ. وَصَدَقَةُ الْعِلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفِعُ مِيتَةَ السُّوءِ. وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ.

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَارْغَبُوا فِي وَعْدِ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ، وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ، وَاسْتَنْزُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ» [3].

وحول الموت يقول أمير المؤمنين (ع): «أَوَّلَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرُ، وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبَصُّرَةٌ وَمُعْتَبَرُ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، أَوْلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلَائِفِ الْبَاقِي لَا يَبْقَوْنَ! أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمَسُّونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى، فَمَيِّتٌ يُبْكِي، وَآخِرٌ يُعَزِّي، وَصَرِيحٌ مُبْتَلَى، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخِرٌ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِّلْدُّنْيَا وَالْمَوْتِ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ. وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي.

ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنعّم الشهوات، وقاطع الأُمْنِيَّات، عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا [] على أداء واجب حقّه ولا يحصى من أعداد نِعَمِهِ وإحسانِهِ» [4].

وهكذا شرّع الإسلام الحنيف من سبيل معرفة [] عزّ وجلّ، ووسائل الانشداد إليه عزّ وجلّ وطُرُق الارتباط به الشيء الكثير [] لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [] (ق/ 37).

وهنا تتجلّى العلامة الفارقة بين شريعة [] الخاتمة والنصرانية الحالية التي تعطي للعبادة لونا باهتا محصورا في إطار طقوس كنسية خاوية لا تستجيب لطموحات الروح ولا تروي ظمأها، ولا تشبع جوعتها، إضافة إلى أنّ النصرانية المعاصرة تعطي للعبادة مفهوماً ضيقاً لا تتعدى إطار الطقوس التي يؤدّها النصارى في أيّام الآحاد.

وبناءً على ذلك يكون أتباع الكنيسة قد اختطّوا اليوم منهجاً غريباً يقضي «بتقسيم الحقوق» بين الإنسان وبين [] تعالى، ف[] يصلّون في الكنيسة ويقرؤون الأناجيل مثلاً، بينما يمكن أن يكون الإنسان من رسم طريقه في الحياة وفقاً لمشيئته، فيشرع حسب مقتضيات مصالحه، ويقنّن وفقاً لما تملي عليه رغباته وأهواؤه.

وقد كشف القرآن الكريم عن أخطاء تصوّر النصراني الكنسي، وأنحى باللائمة على النصارى الذين حصروا عبادة [] في زاوية محدودة، في حين أعطوا منطّريهم وقادة الرأي فيهم حقّ التشريع والتقنين، قال تعالى: [] اتَّخَذُوا أَحِبَارَهُمْ وَرُهَيْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَعَ أَمْثَلُ مَا إرَّسُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (التوبة/ 31).

ولقد أوضح الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) المفهوم الذي طرحته الآية الكريمة الآنف الذكر، حيث قال (ع): «أما و[] ما دَعَوْهُمْ إلى عبادة أنفُسِهِمْ ولو دَعَوْهُمْ ما أجابوهم ولكن أحلّوا لهم حَرَاماً وحَرَّموا عليهم حَلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون» [5].

غير أنّ إنسان الإسلام يرسم شوطه في الحياة، بإجراء التوافق بين مصالحه، ومراد [] عزّ وجلّ، فالخالق، و[] هو المُدبّر لشؤون البشر وحياتهم.

[] أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (الأعراف/ 54).

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف/ 40).

والمُسلم في المنطق الإسلامي عابد يتلقّى ما يأمره ربّه تعالى بالتسليم والطاعة، فليس له أن يخالف منهج الله، وليس له أن يشرع قبل شرعه الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْؤِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونُوا لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب/ 36).

على أنَّ المشرِّع الأعلى عزَّ وجلَّ قد ضمن للإنسان من جانبه تلبية شريعته الغرّاء لكلِّ متطلّبات الإنسان وطموحاته ومستجيبة لكلِّ حاجته الفطرية ومشاكله المستجدة لتضمن الشريعة الإلهية للمُسلم - من خلال ذلك - . وهذا الموقف من الرسالة - موقف التغطية لكلِّ الحاجة الأساسية للإنسان - موقف واقعي بالصميم، فقد علم الله سبحانه وتعالى أنَّ حياة الإنسان من شأنها التحوُّل والتغيُّر والتطوُّر.

[1] - المصدر نفسه، الخطبة 83، ص 109 - 110.

[2] - المصدر نفسه، الخطبة 90، ص 123.

[3] - المصدر نفسه، الخطبة رقم 110، ص 163.

[4] - المصدر السابق نفسه، الخطبة 99، ص 145.

[5] - تفسير الميزان، ج 9، البحث الروائي، ص 254.